محمد شحاته ربيع
أستاذ علم النفس، كلية العلوم، جامعة الإمام محمد بن مسعود الإسلامية، الرياض – المملكة العربية السعودية.

❖ دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، مصر 1993، [605 صفحات من القطع الكبير].
❖ لغة البحث (الكتاب): اللغة العربية.
❖ مجال البحث (الكتاب): التراث النفسي الإسلامي – الحضارة العربية الإسلامية.

❑ ❑ ❑

كُتِبَ المُؤَلف أساساً لطلبة الجامعة لمقرر دراسي في هذا المجال ليدرَّس في أقسام علم النفس وأقسام الفلسفة والأقسام ذات الإهتمام بالدراسات الإسلامية في الجامعات العربية، وهذا ما يذكره المؤلف بنفسه.

❋ قسِّم الكتاب إلى تسعة أبواب ولكل باب عدة فصول:

تناول الباب الأول الدراسة التمهيدية والأرضية الفلسفية التي تقف وراء التراث الإسلامي في هذا المجال (التراث النفسي)، على أساس أن كل ما كتب في علم النفس في تراثنا الإسلامي إنما كان ضمن الإطار الفلسفي العام. ومن هنا استطرد الباب الأول في بحث مفهوم الفلسفة وعلاقتها بالعلوم الأخرى عامة وعلم النفس بصورة خاصة. وجاء المؤلف على فلاسفة اليونان كأحد المصادر الرئيسة التي استقى علماء النفس أو الفلاسفة المسلمون منها في هذا المجال من التراث.

ثم ركَّز الباحث على الفلسفة الإسلامية ليعطيها خصائص ميّزت أصالتها وجديدها رغم تأثرها بالأفكار والفلسفة اليونانية.

❋ ولم يخرج الباب الثاني عن الفلسفة اليونانية، فالكتاب لمّا يزل بها بعد، حيث جاء الكتاب على نظريات النفس في الفلسفة اليونانية. فتعرض الباب الثاني أولاً إلى مجموعة من صغار الفلاسفة اليونانيين لمرحلة ما قبل سقراط، ثم مجموعة أقطاب الفلسفة اليونانية الثلاثة: سقراط وأفلاطون وأرسطو، ثم جاء أخيراً على نظرية النفس عند فلوطين حيث أثرت نظريته أو فلسفته في النفس

تأثيراً كبيراً على فلاسفة المسلمين. كما تطرق الباب الثاني إلى نقاط التعارض أو الإلتقاء بين الفلسفتين اليونانية والإسلامية محاولاً توضيح أن ما أخذه الفلاسفة المسلمون من الفلسفة اليونانية إنما قام على ما لا يتعارض – أو هكذا كان تصورهم أو اجتهادهم – مع الدين الإسلامي الحنيف.

* وكتطور تأريخي انتقل الباب الثالث إلى نشأة التفكير الفلسفي عند علماء المسلمين وفلاسفتهم. ويرى المؤلف إن الأصول الرئيسة لنشأة هذا التفكير إنما كان من خلال عاملين هما:

- العامل الأول ما طالب به القرآن الكريم وحضّه المستمر للمسلمين على التفكير والتدبر والتبصّر في خلق الله من كون وأرض وسماء وجماد وحيوان وإنسان، ووجوب السير في الأرض لتتبع خلق الله وعجائب مخلوقاته وبديع صنعه.
- والعامل الثاني ما نقل إليهم من التراث اليوناني بالدرجة الأولى من بين عدة نقولات تراثية أعجمية وصلت إليهم خلال فترة إزدهارالحضارة الإسلامية.

وتحدث المؤلف كذلك عن الدور البارز الذي قامت به الحضارة الإسلامية في نقل التراث الأجنبي مبرراً ذلك بحاجة المسلمين إلى علوم تسَّهل عليهم القيام بفروضهم الدينية، وإلى علاجات طبية للأمراض التي يعانون منها، ثم إلى ظهور خلفاء كانوا قمة في الثقافة والإهتمام بالعلوم ونشر المعرفة (هارون الرشيد، المأمون)، وإلى شيوع الإزدهار الاقتصادي والسياسي والاجتماعي واستتباب الأمن، ثم إلى الطابع العام للعصر العباسي الذي نقل الدولة الإسلامية (بنظر المؤلف) من عالم إلى عالم ومن عقلية إلى عقلية، حيث تفردت بخاصية جديدة وهي ميل القائمين على الدولة إلى العلم.

وقد ربط المؤلف بنجاح بين ما عرضه الباب الثاني في إطار فلسفي يوناني ومن إطار فلسفي إسلامي في الباب الثالث ليصل إلى أن الترجمة كانت لتلاقح الأفكار والبناء والتفاعل الحضاري المستمر للجنس البشري. ثم تطرق المؤلف إلى الدور البارز لفلاسفة وعلماء المسلمين في الحفاظ على التراث الأعجمي

كله بما فيه التراث اليوناني وتجديده والإضافة عليه والإبداع فيه ولَيْ نظرياته ومنطلقاته لتوائم الطرح الإسلامي فيما يتعلق بالخالق والمخلوق والإنسان.

* ثم جاءت الأبواب الستة التالية (من الباب الرابع حتى التاسع) على تفصيل وإجمال آناً واحداً لأبرز الفلاسفة المسلمين وهم بدون شك الذين تحدثوا عن النفس البشرية وكانوا مصدر التراث الإسلامي لها.

* فجاء الباب الرابع على فيلسوف العرب (الكندي) الذي عاش القرن الثالث الهجري في أوج زهو الحضارة الإسلامية، حيث كان الفيلسوف الأول لهذه الحضارة.

ثم جاء الكتاب على دور (الكندي) في توضيح مفهوم النفس وقواها المختلفة ونظريته في العقول والمعرفة والجوانب الأخلاقية والفضائل الإنسانية والأحلام والرؤى ودراسته المتميزة الفريدة للحزن وكيفية معالجته ودفعه عن الإنسان.

ويرى الكندي أن النفس بسيطة، ذات شرف وكمال، عظيمة الشأن، جوهرها من جوهر الخالق سبحانه وتعالى. لذا فإن جوهرها آلهي روحاني مما يرى من شرف طباعها، وهذه هي النفس العقلية أو النفس العاقلة (كما يسميها الكندي).

أما القوة الغضبية فتحمل الإنسان على ارتكاب الإثم فتقف النفس العاقلة مانعة لهذه القوى الغضبية ورادعة للكثير من أفعالها.

ثم القوة الشهوانية التي تتوق بالنفس البشرية لإشباع شهواتها ولكنها تبقى مقيدة بالنفس العاقلة.

وقد أعجب الكندي في هذا المجال ببعض ما عند إفلاطون وبعض ما عند أرسطو فكان موفقاً بينهما انتقائياً لما عندهما.

والعقول عنده أربعة: عقل دائم بالعقل، وعقل بالقوة (فطري) وثالث يخرج النفس من حال القوة إلى حال الفعل (مَلكَة الإدراك والتفكير) وعقل رابع ظاهر للنفس أو الصورة الظاهرة للمعلومات الموجودة لدى الإنسان.

أما المعرفة عند الكندي فهي حسية وعقلية وبصيرية وهنا يظهر الجديد الذي أضافه الكندي للفلسفة الإسلامية بعيدة عن الفلسفة اليونانية غير متأثرة بها.

ثم يستعرض المؤلف رسالة الكندي في (النوم والرؤيا) حيث نقلت بكاملها في العصور الوسطى إلى أوروبا واللغة اللاتينية لتعد من الإسهامات الأساس في موضوع الأحلام التي أثرت في بدايات النهضة الأوروبية اللاحقة.

ثم يفيض الكندي في موضوع الحزن (أو ما نسميه الآن بالإكتئاب) الذي يعتبره الكندي أشد على الإنسان من شرب السم. ففي رسالته (دفع الإحزان)، وهي رسالة يمكن أن تعتبر رائدة في العلاج النفسي أو الصحة النفسية، يعرّف الحزن وحقيقته وأسبابه والعوامل التي تورثه وعلاجه والوقاية منه (دفعه). وأهم ما يراه الكندي في الحزن أنه نتاج لعادات سيئة للإنسان (سلوك) بإمكانه أن يغيّرها فيدفع الحزن عنه باستبدال السلوك السيئ (أو العادات كما نسميها) بالسلوك الحسن الجميل.

وربما يختم الكندي رسالته في دفع الإحزان بتوجه أقرب ما يكون إلى التوجه الصوفي، حيث ينصح الإنسان بعدم امتلاكه الكثير من الأشياء (تقليل قنيته من الأشياء المادية) ليقلل من المصائب التي قد تصيبه عند فقدها.

* ثم يأتي الباب الخامس من الكتاب على المعلم الثاني (الفارابي) الذي عاش بين القرن الثالث والقرن الرابع الهجري. حيث يعتبره المؤلف متقدماً عن الكندي في الدراسات النفسية.

فجاء الباب على حياة الفارابي أولاً ثم تعريفه للنفس ثم تحديده لقوى النفس، فنظريته المتكاملة في الفيض والنظام الكوني الذي يراه الفارابي، ثم العقل والمعرفة، فالأحلام والمنامات، فتمييزه - أي الفارابي - بين الرؤيا الصادقة والنبوة والوحي، ثم السعادة أو الفضيلة، وأخيراً حديثه عن المدينة الفاضلة.

ويلاحظ المؤلف على ما كتبه الفارابي في النفس البشرية من أنه:

- عالج موضوعات علم النفس من وجهة نظر إسلامية.

- وإسهامه الرائع في علم النفس الأخلاقي والاجتماعي من خلال اهتمام الفارابي بدراسات الفضيلة والسعادة والمدينة الفاضلة.

والقوى عند الفارابي أربع: غاذية، حاسة، متخيلة، وناطقة، وأن محل هذه القوى الرئيسة للنفس في القلب كعضو رئيس في جسم الإنسان يليه الدماغ لخدمة سائر أعضاء جسمه. فالقلب عند الفارابي هو «ينبوع الحرارة الغريزية».

وعقول الفارابي أربعة كذلك: هيولاني، عقل بالملكة، العقل المستفاد، والعقل الفعال: وهو الروح الأسنى أو روح القدس أو واهب الصور كما يسميه الفارابي.

* ويأتي الباب السادس على المذهب النفسي لإخوان الصفاء وخلان الوفاء كجماعة فكرية ظهرت في منتصف القرن الرابع الهجري في الدولة الإسلامية العباسية، دعت إلى مجموعة من المبادئ السرية على رأسها التشيع وإن كان هدفها المعلن هو تطهير الشريعة التي تدنست بالجهالات كما يرونها.

أما عن رسائل إخوان الصفا فقد استعرض المؤلف ما سجلوا فيها من علومهم في معارف متنوعة: كالرياضيات والتنجيم والعلوم والفلسفة وعلم النفس. وكانت من أهدافهم إشاعة الصفاء والنقاء في نفوس أعضاء الجماعة، لذلك اعتنوا بعلم النفس عناية فائقة ودرسوا - كما درس الفلاسفة المسلمون غيرهم - موضوعات النفس وقواها المختلفة، وقد عنوا بالإنسان عناية فائقة. كما اهتموا بدراسة التوجيهات النفسية والتربوية للتلميذ أو المريد الذي يريد الإنضمام لجماعتهم.

كما درسوا، مثل الكندي والفارابي من قبلهم، علم النفس الأخلاقي في موضوعي الفضيلة والسعادة.

و يرى المؤلف أن كتابات إخوان الصفا سادها الغموض، لأنهم - برأيه - حاولوا بقدر الإمكان إخفاء أغراضهم الحقيقية التي يقال أنها على اتصال بالتشيع والسياسة، وأنهم اتخذوا جماعتهم ورسائلهم لإخفاء تلك الاتجاهات.

ويعتبر المؤلف أن إخوان الصفا قد تميزوا كثيراً بمحاولة ربطهم بين النفس

الإنسانية ومصيرها من جهة، وبين النجوم والأفلاك والبروج من جهة ثانية. أي أنهم حاولوا الربط بين علمين هما: علم النفس وعلم التنجيم.

* أما الباب السابع فيتناول علم أعلام الفلسفة الإسلامية - كما يسميه المؤلف - هوالشيخ الرئيس ابن سينا الذي عاش بين القرنين الرابع والخامس الهجري، أي إبان الدولة العباسية كما كان كل من سبقه في الأبواب الثلاثة السابقة.

ويرى المؤلف أن الشيخ الرئيس (ويسميه المؤلف بما سمي به ابن سينا: حجة الحق، شرف الملك، الحكيم، الوزير، الدستور...الخ) يمثل الذروة الشامخة في الدراسات النفسية بين علماء العصور الوسطى قاطبة. وشهرته العالمية اللاحقة له لا تباريها شهرة غيرها من ناحية، وكانت عناية أهل الشرق والغرب بنتاجه وفكره وكتبه ورسائله عناية لم تعط لأحد غيره من ناحية ثانية.

ويفصِّل الباب السابع تعريف النفس عند الشيخ الرئيس وعلاقتها بالجسم الإنساني وبراهين ابن سينا لإثبات وجودها. ثم ناقش الكتاب القوى الجزئية للنفوس الثلاثة: النباتية والحيوانية والإنسانية. كذلك ما درسه الشيخ الرئيس عن موضوع النوم والأحلام والرؤيا الصادقة.

كما جاء الباب السابع كذلك على مساهمات الشيخ الرئيس في باب سياسة الأولاد وتربيتهم وتأديبهم وتوجيههم بما يسميه المؤلف (التوجيهات التربوية السينوية). وكما عالج غير ابن سينا موضوع علم النفس الأخلاقي (كما يسميه المؤلف ويقصد به باب السعادة والفضيلة) فقد عالج ابن سينا هذا الموضوع بإسهاب، إضافة للقصيدة العينية في النفس البشرية التي ألّفها ابن سينا ليضمنها أهم آرائه ونظريته في النفس البشرية. وقد جاء الكتاب على شرح هذه القصيدة بيتاً بيتاً ليقدم شيئاً جديداً ومتميزاً.

ولم يغفل المؤلف في هذا الباب عبقرية ابن سينا كطبيب، إذ جاء على كتابه الأسطوري (القانون) الذي تربع على عرش الجامعات الأوروبية حتى أوائل القرن السابع عشر وطبع في اللاتينية ستة عشر مرة في القرن السادس عشر. ثم جاء الكتاب على ابن سينا كفيلسوف وكشاعر وسياسي وعالم نفس.

* وجاء الباب الثامن للكتاب على (حجة الإسلام) الإمام والمفكر الإسلامي الكبير «أبو حامد الغزالي» الذي عاش في القرن الخامس الهجري في الدولة الإسلامية العباسية.

ويرى المؤلف أن الغزالي صاحب أكبر محاولة ناجحة في التراث النفسي عند علماء المسلمين لتوجيه الدراسات النفسية توجيهاً إسلامياً دقيقاً.

وقد جاء الباب الثامن ليناقش ما كتبه الغزالي عن موضوعات علم النفس التقليدية في عصره مستفيداً - كما يرى المؤلف - من ابن سينا من بعض الجوانب ومستقلاً عنه في جوانب أخرى. كما جاء الباب لدراسة مصطلحات رئيسة في باب النفس البشرية كالجسم والقلب والنفس والروح والعقل من وجهة نظر الإمام الغزالي. كذلك مناقشة الغزالي لقوى النفس المختلفة ليسهم في ذلك بنظرية جديدة في باب الدوافع والإنفعالات. كما جاء الباب كذلك على مناقشة الحاسة الدينية عند الإنسان وأهميتها، ثم علم النفس الأخلاقي: السعادة والفضيلة إلى جانب آراء الغزالي في تربية الأولاد وسياسة تدبيرهم.

ويرى المؤلف أن الإمام الغزالي - فيما عدا نظريته في قوى النفس والبرهنة عليها - كان مبدعاً في طروحاته جديداً في آرائه مخضعاً كل ما عنده لوجهة نظر إسلامية واضحة لا لبس فيها، بل ويراه المؤلف أنه الوحيد من بين كبار مفكري الإسلام الذي استطاع أن يوجه الدراسات النفسية توجيهاً إسلامياً.

وبالطبع لم يفوِّت المؤلف فرصته للتطرق إلى كتاب (مقاصد الفلاسفة) للغزالي ليبرهن - أي الغزالي - عن إحاطته بمذهبي الفارابي وابن سينا في الفلسفة وليمهد لكتابه الثاني الشهير جداً والغزير بفلسفته جداً (تهافت الفلاسفة) للرد عليهما بدرجة أساس، حتى ليصفه المؤلف كما وصف الغزالي من قبل بأنه: «دخل في بطون الفلاسفة ثم أراد أن يخرج منها فما قدر».

* ويختتم الكتاب الأبواب الستة عن الفلاسفة المسلمين (من الباب الرابع حتى التاسع) بالباب التاسع عن ابن رشد وبه يختتم الكتاب كله: ابن رشد فيلسوف قرطبة والشارح الأكبر الذي عاش في القرن السادس الهجري في ظل الدولة الإسلامية في الأندلس. ولقد سمي بالشارح الأكبر لأنه أكبر شُرّاح العصر

القديم والوسيط للأفكار الفلسفية الأرسطية الغامضة. وقد بيَّن المؤلف كيف تتلمذ على فكر ابن رشد مفكرو أوروبا في القرون الوسطى وكيف شغل أناس ذلك العصر به وبفلسفته وآرائه حتى انقسم الأوروبيون إلى طائفتين:

- طائفة تناصر ابن رشد
- وطائفة تناهضه

ففي باريس حاضرة الثقافة الأوروبية في العصر الوسيط كان هناك معهدان علميان يتنافسان:

- الأول جامعة السوربون تناهض ابن رشد وتناصر توماالأكويني.
- والثاني جامعة باريس التي تناهض توما الأكويني وتناصر ابن رشد.

حتى سموا «بالرشديين» «وغير الرشديين» إلى أن تدخلت الكنيسة في أواخر القرن الثالث عشر الميلادي لحسم هذه النزاع وحددت موقفها من الفلسفة الرشدية.

وقد جاء الباب التاسع من الكتاب على حياة ابن رشد كذلك، وعن النفس البشرية عنده، ثم القوتين النفسيتين: الغاذية والحساسة، ثم الحس المشترك والتخيل والنزوع والحفظ والذكر والتذكر ثم القوى الناطقة ثم النوم والرؤيا وأخيراً الأخلاق والسياسة.

ويرى المؤلف أن ابن رشد إلى جانب إلمامه الكبير بالتراث اليوناني فقد استطاع أن يمزج التراث اليوناني بالتراث الإسلامي العظيم، واستطاع كذلك الإبانة على قدرته في تطبيق الأفكار اليونانية الموجهة إسلامياً على واقع المجتمع الإسلامي الذي عاصره ابن رشد.

ويوضح المؤلف أن هؤلاء العلماء أو الفلاسفة الذي جاء عليهم الكتاب هم ليسوا كل علماء وفلاسفة المسلمين في مجال التراث النفسي، فسماء الفكر الإسلامي مزدانة بالعديد من النجوم الزاهرة. إلا أن سبب اختيار المؤلف لبعضهم (الكندي، الفارابي، ابن سينا، إخوان الصفا، الغزالي، ابن رشد) كان سبب اعتقاده بأنهم أصدق من يمثل ذلك التراث النفسي العظيم.

❑ ❑ ❑

عناوين رئيسة:

علم النفس في التراث الإسلامي، النفس البشرية في التراث الإسلامي، آراء الكندي، الفارابي، ابن سينا، إخوان الصفا، أبو حامد الغزالي، ابن رشد في النفس البشرية.

❑ ❑ ❑

الملاحظات:

- رغم أن الكتاب يتحدث في التراث النفسي إلا أن خلفية فلسفية كبيرة قد أثرت في توجه الكتاب، إذ لم يدخل الكتاب في التفاصيل النفسية الدقيقة أو علاقتها بالنظريات النفسية المعاصرة وما يمكن أن يحسب لهم كإبداع وتجديد في ميدان علم النفس حتى الوقت الحاضر.
- إلا أن الكتاب من الجهة الثانية حاول - وبجهد كبير - أن يلم بأساسيات التراث النفسي الذي ولد في رحم الفلسفة، ليس في زمان العلماء المسلمين بل حتى أواخر القرن التاسع عشر الميلادي. ومن هنا لم يكن الفصل يسيراً بين الرحم الكبير وبين الجنين الذي عاش في ثناياه.
- وعَدَ المؤلف في مقدمته بأن يكتب الجزء الثاني من هذا الكتاب ليأتي على كوكبة أخرى من علماء التراث النفسي - وهم في الحقيقة كثير - ولا أدري إن كان قد صدر له الجزء الثاني أم لا، فقد حاولت البحث عنه ولم أجده مع الأسف.
- يمكن للقارئ أو الباحث في الإطار النظري أو الفلسفي أن يفيد من عرض الكتاب وخاصة في فصوله الستة الأخيرة. وما عدا ذلك، وكما ذكرت قبل قليل، فإن المؤلف لم يعقد المقارنات النفسية بين القديم والمعاصر من جهة، ولم يعرض تفاصيل الوجهة الإسلامية للنفس البشرية ولا التصور الإسلامي عنها من جهة ثانية.

❑ ❑ ❑